السفير العربي
جريدة لبنان في الوطن العربي وجريدة الوطن العربي في لبنان

17 | 1
العدالة الاجتماعية والانتفاضات العربية، دراسة عالمية تنشرها «السفير العربي» على أجزاء: هنا الجزء الأول، النظرة العامة والخلفية. وتشابه في الموقف البطريركي من النساء بين الديني والتقدمي.
2
في أسباب تفضيل القرآن للمدينة. وشهادة من تجربة معلم في قرية «عين عرب» قبل سنوات. ولوحة لمحمد مهر الدين، الفنان العراقي الكبير، المتميز بفرادته، الذي توفي الأسبوع الفائت.
3
الصناعة المحلية العراقية فائقة الجودة والخبرة ـ رغم تدميرها في الحروب ـ مهملة لمصلحة السمسرات الاستيرادية: فوضى وفساد. وبمناسبة يوم العودة الفلسطيني، المواجه لاحتفالات إسرائيل بنشوئها: وجه أمينة!
4

الخميس 30 نيسان 2015 ـ الموافق 11 رجب 1436 هـ ـ العدد 13058
AS-SAFIR Arabic political daily - April 30, 2015 N° 13058

هويّة فلسطينيّي الداخل ثمناً لهزائم العرب

لم تكن مسألة الهويّة بالنسبة لأي من مركّبات الشعب الفلسطينيّ مسألةً شاغلةً كما كانت للفلسطينيين داخل الأراضي المحتلّة العام 1948. لن نجد فلسطينياً في الداخل لم يُسأل مرة واحدة في حياته على الأقل، في الجامعة أو في مقابلة عمل، في سيارة أجرة أو في لقاء حزبيّ، ذلك السؤال المُفخخ: «كيف تعرِّف/ين نفسك؟». سؤال يلحقه، طبعاً، نقاش لا ينتهي حول تلك الوصمات التي نحملها، وحول ترتيب تلك الوصمات في الجُملة المفيدة – ما الذي يسبق الآخر؟ تعريفك الدينيّ لنفسك؟ الجندري؟ القوميّ؟ عربيّ فلسطينيّ أم فلسطينيّ فقط؟ والمواطَنة؟ هل يُمكن تجاهلها؟ هكذا، وببساطة شديدة، يحتاج كل إنسان فلسطينيّ داخل إسرائيل إلى جُملة تبدأ بالضمير المنفصل «أنا»، تعرّفه، ترافقه مثل ظلّه، يحفظها ويُطلقها حيثما يُسأل.

منذ النكبة تشكّل الهويّة شغلنا الشاغل. جمعيّات تختصّ بـ «تعزيز الهويّة»، وأحزاب ترفع شعار «الهويّة الوطنيّة»، حتى مخيّمات للأطفال كانت بعضها (ولا زالت) تُسمّى «مخيّمات الهويّة»، وقائمة لا نهائيّة من المشاريع والمؤسسات التي تتكرر فيها عشرات المرّات الكلمة ذاتها التي تحوّلت هاجساً يتصاعد عبر التاريخ متموّجاً مع كل تراجع للحركة القوميّة العربيّة والحركة الوطنيّة الفلسطينيّة. بعد النكبة موجةٌ أولى، بعد «النكسة» موجة ثانية، وبعد التوقيع على اتفاقيّة أوسلو موجة ثالثة. كلّها أحداث مفصليّة جرّت وراءها جزراً اجتماعياً للمجتمع الفلسطيني في الداخل، وتراجعاً جماهيرياً عن الخطاب السياسيّ المناهض لإسرائيل لمصلحة رغبة اجتماعيّة بالاندماج (كشرط للبقاء) في المؤسسة – الدولة التي بدت في تلك الفترات الثلاث وكأنها ثبتت وجودها نهائياً. وقد نكون اليوم أمام موجةٍ جديدة..

الأسْرلة: صكّ استسلام

لم يبق للفلسطينيّ داخل إسرائيل بعد النكبة لا أرض يخسرها ولا أملاك. المدن هُجّرت بالكامل والقرى تحوّلت إلى معسكرات عمّال كبيرة ينام الناس فيها ويستيقظون للعمل في مصالح الإسرائيليين من دون حيّز عام أو استقلاليّة للتداول الاقتصاديّ، وضيق شديد في مساحات التفاعل الاجتماعي بين الناس. وباختصار: لم يبق للفلسطينيين في الداخل، وهم جزء من الأمّة العربيّة، ما يدفعونه جزيةً في كل حرب (أو تنازل، مثل أوسلو) تخسرها هذه الأمّة ضد إسرائيل. بعد كل هزيمة لحقتْ النكبة، لم يكن لمن لا يملكون شيئاً ما يقدّمونه للمنتصر من أرض أو مُلك، لكنّهم كانوا يتنازلون في كل مرة من جديد عن انتمائهم لثقافة مجتمعهم ــ تلك الثقافة التي تعبّر عن علاقتهم الأصلانيّة بطبيعة فلسطين. بالنسبة للإسرائيليّ، كان تنازل الفلسطينيّ عن ملامحه الثقافيّة يعبّر عن تنازله عن ذاكرته، وبالتالي تنازله عن علاقته بالأرض، أي أن هذا التنازل الثقافيّ كان عبارة عن تجديد مستمر لوعد الفلسطينيّين بأنهم لن يطالبوا الإسرائيليّ بحقّهم التاريخي بأرضهم.

وُصف هذا «التنازل» في الأدبيّات غير الكثيرة التي كُتبت حول الفلسطينيين في الداخل بمصطلحات مثل التهويد والأسرلة، وقد طُرحت مشاريع «تعزيز الهويّة» كمشاريع نقيضة لما سُمّي «مشاريع الأسرلة». والأسرلة مصطلح أتى ليوازي «التهويد». التهويد للمكان، والأسرلة للإنسان. إذ لا يمكن للأوّل، الذي يعني طمس الملامح العربيّة للمكان وإعطاءه ملامح يهوديّة، أن يستخدم في وصف المشروع الإسرائيلي تجاه الإنسان الفلسطيني. لماذا؟ أولاً، لأن المشروع ليس دينياً لتحويل المسلمين والمسيحيين للديانة اليهوديّة بأيّ حالٍ من الأحوال، والسبب الثاني (الذي يعزّز الأوّل) أن مفتاح الامتياز تحت السيادة الإسرائيليّة، رسمياً، هو أن يكون الإنسان من أمّ يهوديّة، وعليه فهناك مصلحة سياسيّة للإسرائيليين بمنع تحوّل الفلسطينيين بطوائفهم كافة للدين اليهوديّ. هنا يجب التشديد على أن الانتماء الدينيّ هو المفتاح الرسميّ (فقط) للامتيازات، بيدَ أن المفتاح الحقيقيّ هو الانتماء لطبقة اليهود الأوروبيين في إسرائيل، وهي طبقة تَعتبر أصلاً يهود الدول العربيّة عبئاً على «طموحاتها التنويريّة».

حشرة كافكا تستيقظ في إسرائيل

ذلك وحده لا يكفي ليُثبت أن «مشروع الأسْرلة» يوازي مشروع تهويد المكان، لأنه يَفترض عن طريق الخطأ، كما يُطرح غالباً، وجود هويّة ثقافيّة إسرائيليّة يُمكن الانتماء إليها. هل يُمكن أن نشير إلى ثقافة إسرائيليّة؟ هل يُمكن الإشارة إلى مجتمع إسرائيليّ؟ يمكن بالفعل الإشارة في إسرائيل إلى ثقافة أشكنازيّة يهوديّة، والى ثقافة اليهود المغاربة، أو إلى مجتمعٍ يهوديّ روسيّ، أو مجتمعٍ يهوديّ أثيوبيّ. إن ما يُمكّن الإشارة إليه في إسرائيل كدوائر اجتماعيّة وثقافيّة هي تبلورات مختلفة للجاليات اليهوديّة حول العالم، تكوّنت على امتداد مئات السنوات والسرديات التاريخيّة المختلفة، وهي لم تغيّر شكل المجتمعات وثقافتها فحسب، إنما تغلغلت لتشكّل تيّارات دينيّة مختلفة في اليهوديّة يتأسس اختلافها على مَوطنها وثقافتها الأصليّة. وهي تيّارات يسود بينها، بالمناسبة، جدل دينيّ وسياسيّ جدي. فكيف يُمكن أن نَدّعي بأن «مشروع أسرلة» الفلسطينيين هو مشروع لطمس ملامحهم الثقافيّة العربيّة واستبدالها بأخرى «إسرائيليّة»؟

إن الإجابة على هذا السؤال تتطلّب فهماً للأسرلة باعتبارها عمليّة تشويه للهويّة الثقافيّة القائمة، وليس استبدالها الكامل بأخرى. والتشويه، باللغة العربيّة، يخلق «المسخ»، وهو لفظ هام في هذا الموضع لأنه يحيلنا إلى رواية فرانز كافكا الشهيرة المنشورة العام 1915، التي تصف إنساناً استيقظ ليجد نفسه حشرةً هائلة الحجم. هذه الرواية، كما جاء في جزء من تحليلاتها الكثيرة، تأتي بتفاصيل التحوّل (التشوّه العَظيم) كناتجٍ حتميّ لاغتراب الإنسان داخل نظام رأسماليّ يُفقده إنسانيّته حين يُفقده علاقته بالطبيعة. العلاقة مع الطبيعة، مع الأرض، هي ذاتها العلاقة/ الذاكرة/ الثقافة التي يتنازل الفلسطينيّ عن انتمائه إليها في كلّ مرة يضطر فيها إلى التنازل (كشرط للبقاء، كما ذُكر)، بعد كُلّ هزيمة من هزائم أمّته. التنازل عن الهويّة الثقافيّة الذي ينتزعه النظام الصهيوني من الإنسان الفلسطيني إنما ينتزعه لأنه نظام استعماريّ قائم على «قومجيّة» رأس المال، وبالتالي فإن مَسخ الإنسان ــ بعد مصادرة كل ما يملكه ـ إنما هو مسخٌ لهويّته القوميّة يعبّر عن تنازل الإنسان عن حقّه بامتلاك طبيعته.

محمد بدارنة ـ فلسطين

الهويّة: يُحفظ المُنتج في مكانٍ متجمدٍ

إن علاقة التعلّم القائمة بين الرأسماليّة والدولة الاستعماريّة تنقل أدوات القوّة الناعمة التي تستخدمها الشركات الكبرى حول العالم إلى يد الاستعمار. فمثلما تتكدّس الأموال في حسابات أصحاب الشركات الكبرى من خلال خلق مجالات عمل تحترم العامل وتُعطيه حقّه وحريّته ـ صورياً ـ بينما تُكسب الثروة على حسابه، يدفع الاستعمار نحو الحفاظ على هويّة فولكلوريّة منزوعة من موقفها السياسيّ، وهو موقف عبّرت عنه شخصيّات سياسيّة إسرائيليّة في أكثر من مناسبة. واليوم، بعد 15 عاماً على آخر «انفجار» شهده المجتمع الفلسطيني في الداخل بوجه الإسرائيليين، نجد أنفسنا نُشرف على مرحلة بهذه الملامح، إذ تذهب تيّارات جديّة في الأحزاب السياسيّة الفاعلة في الداخل إلى تبنّي خطاب سياسيّ يقترح ويطالب بنماذج جديدة من «الاندماج» داخل المؤسسة الإسرائيليّة من «دون أن يتنازل المجتمع الفلسطينيّ عن هويته الثقافيّة». هذه توجّهات لا تنكر الصراع مع إسرائيل، إنما تُفرغه من جوهره كصراعٍ وجوديّ ضد الاستعمار، وتحوّله صراعاً مدنياً من أجل المساواة بالفرص، وهي بهذا تلبّي رغبة حديثة للاستعمار في الإبقاء على الهويّة الثقافيّة الفولكلوريّة، ولكن تفريغ الهويّة الثقافيّة من الدور السياسي الذي تؤدّيه، أيّ من المطالبة بحقّها التاريخيّ على طبيعتها وأرضها. وهي بهذا تُتيح الحديث عن حقوق الفرد المشتقّة من كونه «إنساناً مواطناً»، لكنها تتخلص من نضال الشعوب لأجل حقوقها السياسيّة (المشتقّة من حقها التاريخيّ) كمجتمعات سيّدة نفسها. وقد نجد أفضل تعبيرٍ عن هذه المرحلة في تسريب بعض قيادات «القائمة المشتركة» لصحيفة «هآرتس» الإسرائيليّة أنّهم رفضوا دعوةً لزيارة جامعة الدول العربيّة «من أجل التركّز بالمسائل المتعلّقة بالجمهور العربيّ مباشرةً»، وكأنّنا أمام صراعٍ في دائرة معطاة ومسلّم بها، ولسنا جزءاً ولا دوراً، من صراعٍ أوسعَ بكثير على موقع هذه الدائرة ـ المستعمرة اتجاه محيطها الطبيعيّ. ولا يأتي هذا النهج السياسيّة من فراغ، إنما يُدفع إلى التدهور نتيجة تراجعٍ اجتماعيّ عن الانتماء للهويّة الثقافيّة والهويّة السياسيّة على أثر هزيمة الأمّة التي نعيشها في أيّامنا، ونقصد الحضيض الذي حفرته الصراعات الطائفيّة والمذهبيّة في الوطن العربيّ، وحال سوريا ومصر واليمن والعراق وغيرها، فهذه أيضاً هزيمة بكل ما تحمل الكلمة من معنى.

أسئلة عن الآتي..

لقد واجه الفلسطينيّون في الداخل مشروع تشويه الهويّة الثقافيّة بسعي دائمٍ للحفاظ على هويّة ثقافيّة تحوّلت مع الزمن إلى هويّة جامدة أشبه بتمثال قديم. تتحوّل رؤية الإنسان لنفسه في المرآة إلى موقف سياسيّ يوميّ يُقوّض تركيب الفرد. وفي صراعٍ ضدّ آلة تسطو على كل شيء، وتهاجم كل شيء، يُصبح الفصل بين الحياة السياسيّة وبين كل شيء آخر مهمة مستحيلة، يُصبح «تحرر» الفرد من السياسة موقفاً سياسياً، ويشكّل ذلك ردّةً عن النشاط السياسيّ المناهض لإسرائيل، خاصةً أن الأحزاب الوطنيّة لا زالت تسعى لفرض مؤسساتها، بوصفها مؤسسات تؤطّر حياة الإنسان منذ ولادته في منظّمات «الأشبال» مروراً «بالشبيبة» و «الحركة الطالبيّة»، وصولاً إلى البلوغ وأخذ دور قيادي/ أبويّ في العائلة الحزبيّة. وفهم الأحزاب لنفسها على أنها تؤطّر هويّة الإنسان وحياته، يحوّل بقاءها التنظيميّ والجماهيريّ هدفاً سامياً بحدّ ذاته، فتضطرّ غالباً ألّا تجازف بحياتها، وأن تنصاع لتراجعٍ اجتماعيّ بدلاً من قيادة المجتمع نحو التغيير السياسيّ، وذلك من أجل الحفاظ على «وجود» الحزب. هكذا، تُبتلع الأحزاب الوطنيّة في دائرة التنازلات و«الاندماج»، ويحدث لها ذلك بينما هي تردد شعارات عن تاريخها النضاليّ، تماماً كم تفعل حركة فتح منذ خروجها من بيروت.. وتماما مثلما بُرِّر التنازل عن القضيّة في أوسلو مقابل التمسّك بالتنظيم «الشرعي والوحيد»، ومثلما ابتُلعت أحزاب اليسار في فوهة الأنظمة الدكتاتوريّة العربيّة لسنوات طويلة. واليوم في الداخل، نجد مبرر «الوحدة الوطنيّة» الذي تنتهزه «القائمة المشتركة»، فتُخضع التيّارات السياسيّة إلى خطاب منسجم مع أهداف ورؤى يستفيد الاستعمار منها: خذوا هويّتكم التراثيّة، اقرأوا شعر المتنبّي واسمعوا أغاني أم كلثوم، ولكن تنازلوا عن الجوهر السياسي للهويّة الثقافيّة ـ تنازلوا عن الشاهد على حقّكم التاريخي في هذه الأرض.

مجد كيّال

كاتب فلسطيني من حيفا

الرومانسية في مزبلة: «كاريان بوليود»..

يقترب الحبيب من حبيبته. تركز الكاميرا على الوجهين الشابين. توشك الشفاه على سقي بعضها بالريق. ينتظر الجمهور الحدث فيسيطر الصمت على القاعة. نسمع خوار بقرة. يتغير الكادر فنرى الحبيبين وسط فضاء صادم. كان ذلك لقطة من فيلم «كاريان بوليود» للمخرج المغربي ياسين فنان. بوليود هي هوليود الهند، فما هو الكاريان؟ وما العلاقة بينهما؟

مزابل وحمير وأكواخ وأزقة محفّرة، أغنام قذرة تتغذى مما تجده، مجاري ماء صرف صحي تبحث عن مسالك أمام الأبواب وأطفال حفاة يجرون وشبان غاضبون في الزوايا ونساء يمضين مسرعات ومشهد يسبب الغمة.. هذا هو «الكاريان» تقريبا. لا تقبض الكلمات على المشهد بالضبط ولا تستوفي الألم الذي يسببه.

يصور فيلم «كاريان بوليود» الرومانسية في مزبلة. إنه أثر قانون المكان على البشر. ما هي الرومانسية؟ هي التحمل البطولي للألم من أجل الحبيب/ة حتى على حساب النفس. للوصول للحبيبة هنا، يستخدم بطل الفيلم السينما كصنارة. تسهّل السينما تفاهم العشاق. السينما قنطرة حب.

يقول البطل لحبيبته أنه يريد تصوير فيلم ويحتاج ممثلة جميلة كبطلة. تقبل بسعادة ويقوم صديقه بدور المنتج. يتحدث عن أماكن التصوير وعن التكاليف وعن تجهيزات الإضاءة. أثناء عرض الفيلم كان جمهور الطابق السفلي يضحك بشدة نظرا لتطابقه وتشابهه مع المنتج النصّاب الطارئ على الميدان. وهي سخرية مبطنة من استسهال الكثيرين اقتحام مجال السينما في المغرب، وهم يفتقرون لثقافة سينمائية. الطابق السفلي فيه النخبة. أما الجمهور العادي في الطابق العلوي فكان يضحك من العنف اللفظي في الحوارات التي تكشف حلم شباب مغرب اليوم: حبيبة وغرفة. الحبيبة موجودة والغرفة معدومة. يحلمون بخلوة وطاولة مملوءة. هذا حلم بسيط لا حلم طبقي. الحلم سلاح العاجزين. الحلم في قاع البؤس. الرومانسية في المزبلة.

هل يعرف الفقراء الرومانسية؟

ربما يعرفونها أكثر من المترفين الذين يعيشون الرومانسية فعلا ولا يحلمون بها. وما زاد من مصداقية الفيلم اعتماد المخرج على شبان الحي الذي صُوِّر فيه. حين حضر هؤلاء مهرجان طنجة وساروا على البساط الأحمر وتصرفوا بفخر، تناسوا للحظة أنهم أبناء الكاريان.

يستمد الفيلم قوته من نظرة المخرج لأبناء الكاريان بشكل محترم. لم يعاملهم باعتبارهم «بوزبال»، ولم يصورهم من فوق. لم يصور بوزبال في مزبلة. بل يصور الإنسان مضطرا للعيش في مزبلة . ويعتبر وصف شخص ما بأنه «ابن الكاريان» شتيمة لما تحمله صورة ساكن «الكاريان» من سلبيات اقلها استخدام معجم «ساقط». حين شاهد الشبان أنفسهم على الشاشة وسمعوا معجمهم لم يشعروا بالعار. لكن حين مناقشة الفيلم لامهم ملاحظ طُهراني على معجمهم. كان هذا هو حكم الجاهل بقوانين المكان. فردوا عليه بأنهم أثناء التصوير جربوا حوارات بلغة نظيفة فشعروا بالتفاهة واللاواقعية. لذلك استخدموا معجمهم الحقيقي. مهمة السينما هي أن تعري الواقع لا أن تجمله بالماكياج. لذا وفي كل مرة يغرق المتفرجون في الرومانسية، يذكِّرهم صوت البقرة بالواقع. هذا الواقع المشبع بالمفارقات والتناقضات التي تشعِّب أبعاد الفيلم. فهناك سخرية من وضع السينمائي في المغرب. وهناك حكاية علاقة الشبان بالسينما الهندية، وهناك سوسيولوجيا التلقي التي تتناول طريقة تفاعل الجمهور مع الفيلم.

يغضب المخرجون بسبب الاقتصار على التناول السوسيولوجي لأفلامهم. عادة تهتم السوسيولوجيا بالمحتوى فقط ونادرا ما تستنطق الأشكال. يقدم فيلم «كاريان بوليود» قصة متماسكة تحترم قوانين التلقي، بخلاف أفلام لكتاب سيناريو طارئين على السرد يبدؤون بالفلاش باك. يبدؤون بالرقص قبل تعلم المشي فيسقطون في حفرة. وهذا درس لكل سيناريست: تعلم حكي قصة قبل الانتقال للتفلسف. لقد تعلم بيكاسو الرسم وبعدها انتقل للتكعيبية. القصة المتماسكة مهمة لأن المغاربة يشتكون أنهم لا يفهمون قصص أفلام مخرجيهم لأنها غير مبنية، وليس لها نهاية. يردد المتفرجون بسخرية «نهاية لا علاقة».

لقد تفاعل المتفرجون مع فيلم «كاريان بوليود» ــ وهو ليس تحفة فنية على كل حال، لكنه متن سوسيولوجي ملائم ــ لأنه يستثمر التأثير العميق للسينما الهندية في وجدان المغاربة. فالفيلم الهندي يعرض حلما قابلا للتحقق، وهو حلم الوصول للحبيبة. لا مكان للشك بالبطل في الفيلم الهندي. لذا رسّخت السينما الهندية مكانتها خاصة في الأحياء الشعبية التي كان متفرجوها يبكون من فرط التأثر. ويرجع تأثيرها في وجدان المتفرج المغربي الى:

أولا قصة مفهومة من تلقاء ذاتها، بلا تعقيدات، قصة شعبية مع كثير من العواطف الجياشة. وهذا نتيجة تراكم تراث سردي شفوي عريق، شكل أصل كليلة ودمنة، والفيلم، أي فيلم هو سرد أساسا. ثانيا قصة فيها غرام وانتقام. غرام في الحقول وليس في السرير، وهذا ملائم للحياء الشعبي الإسلامي. ثالثا إخراج وظيفي، فالمخرج يهتم بسرد القصة وفهمها أكثر مما يبحث عن التجريب وابتكار كادرات جديدة. رابعا التصوير في فضاءات تسمح للمتفرج بالقيام بالسفر في الهند من خلال أفلامها، فيتصور المتفرج البسيط أن الهند كلها حدائق. خامسا وضوح شديد في رسم الشخصيات الخيّرة والشريرة. يعرف المتفرج الظالم والمظلوم. وهذا يروي تعطش المشاهدين للعدالة. سادسا استخدام أغاني ورقصات مصممة لتخدم القصة وتبين اتصال البطل بالبطلة بعفة. سابعا الاعتماد على ممثلين وسيمين يمتّعون العين ويتماهى معهم المتفرج بسرعة: يشعر ابن الكاريان أنه أميتا باشان أو شاه روخان. ثامنا نظرة رومانسية للعالم. نظرة واثقة لا تخترقها أي شكوك. فالخير موجود في العالم وبين البشر. تاسعا تَحقّق الحلم. فالنهايات السعيدة مضمونة. وهذا تحقيق لحلم المتفرج الذي عجز عن الوصول إليه في الواقع. عاشرا احترام شديد لثقافات الشعوب وعدم صدم الوجدان الجمعي للعامة.

لقد أسعدت هذه الوصفة الفنية ملايين المغاربة، لذا استعادها فيلم «كاريان بوليود»، مع إضافة خوار البقرة غير المقدسة والذي يلعب دور المنبه في تذكير الحالمين بحقيقة المكان الذي يعيشون فيه. إنهم في الكاريان الذي تستره السلطة بسور لكي لا يُظهر العار. ارتبط الكاريان بالبؤس بمدينة الدار البيضاء، حيث للكلمة ثقل تراجيدي. حتى أن للكاريان حضور كبير في الأدب المغربي كما في مسرحية عبد الكريم برشيد «ابن الرومي في مدن الصفيح» الصادرة في 1975، ورواية أحمد المديني «ممر الصفصاف» الصادرة في 2014.

لم يكن بالإمكان تصوير هذا الفيلم في المغرب في السنوات الماضية لأنه قد يُقدِّم صورة غير مشرفة عن أجمل بلد في العالم حسب التلفزيون الحكومي. أما وقد صور الفيلم فهو ينتهي بالجرافات تهدم الحي الصفيحي بحراسة البوليس. ستنقل الدولة السكان المحظوظين لعمارات جديدة. اختلطت مشاعرهم بين عالم يُهدم وعالم يبنى. لكن الحنين أقوى. بعد عام من السكن في فضاء عمودي سيكتشفون بؤسا حديثا.

في الواقع بنيت آلاف العمارات، ومع ذلك نشأت عشوائيات جديدة بسبب الهجرة القروية الكثيفة إلى الدار البيضاء. لذا لا جدوى من إزالة العشوائيات بقرار إداري ينفذه البوليس. سيكون ذلك سحقا لنمط عيش آلاف الأشخاص. البديل هو وضع برنامج طويل المدى يطرح بدائل فعلية لسكان الارياف كما العشوائيات.. وحينها ستنقرض العشوائيات ذاتيا. لن يحتاجها الفقراء. هذا حلم لن يقاومه خوار البقرة.

محمد بنعزيز

كاتب وسينمائي من المغرب

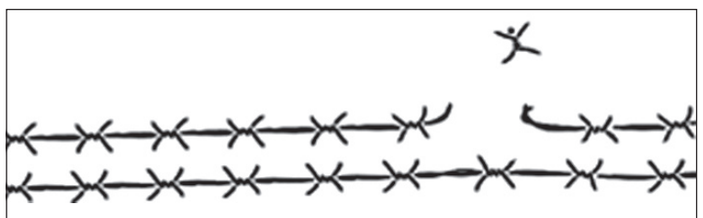

إسرائيل على المريخ

ترى إسرائيل أن أعداءها منقسمون متحاربون، فتطمئن إلى ابتعاد «الخطر الوجودي» عنها. يتكلم ريفلن، رئيسها، بمناسبة عيد «استقلالها» الـ67(*)، عن «دولة يهودية ديموقراطية يتساوى فيها كل مواطنيها وينعمون بالحرية». دعك من التناقض، الباقي في علم النفس يسمّونه «إنكاراً». ولكنه هنا إنكار إرادي، مارسه كل مسؤوليها وكتّابها وإعلامييها المحتفلين بعيدها تحت عنوان واحد هو نجاحها الباهر في تنمية قدراتها الأمنية والحربية والاقتصادية، ناظرين من عل إلى انهيار الدول والجيوش العربية، والى البؤس المريع للمجتمعات العربية وتفَقهرها، غير قلقين كثيراً من الهجمات الفردية على دورياتها وحواجزها، بالسكاكين أو بالدهس، التي يرتكبها شبان يُقتلون فوراً ويُعاقَب أهلهم بشدة. هذا هو الواقع اليوم، يقول «الواقعيون» ممن يُقيمون بيننا. وأما في معسكر إسرائيل نفسها، فلا تُرى ـ ظاهرياً على الأقل ـ إلا «المنجزات التي تحققت بتضحيات جسام» الخ.. لا وجود للفلسطينيين في الخطاب إلا كتفصيل حدثي، مقيت.. وقابل للتجاهل.

وبمقابل ذلك يمور العالم العربي، غير راض عن أحواله ويحاول تجاوزها. فشل حتى الآن، وانتكس في كل مرة. يئِس كثيرون وتخلّوا، ويرغب كثيرون بالمغادرة إلى أينما كان، ويسعون. واضح وبسيط، أليس كذلك؟

لكن لا! فبعد 67 عاماً، ما زال فلسطينيو الداخل، هؤلاء الذين يُمثّلون جزءاً من «مواطني إسرائيل» لو شئنا محاسبة ريفلن (لا نشاء!) يُعبِّرون كل يوم وبكل السبل عن موقفهم: رافضون و «عائدون». صغاراً وشباباً وشيباً. نساء ورجالاً. ما زالت كل أجزاء الشعب الفلسطيني، على أرض فلسطين كما في اللجوء والشتات، تعرف «ما الأمر». وتتعزز في العالم حركة إدانة إسرائيل بوصفها أبارتيد عنصري لا مكان له في عالم اليوم. وأما في بلادنا، وهي على ما هي عليه، فمنذ قليل، منذ أربع سنوات ونيِّف، قلب الناس «عاليها سافلها» كما يقولون. وظهرت ببداهة، بلا تطبيل وشعارات، المسألة الفلسطينية كأساس، ليست بذاتها (فحسب)، بل بوصفها شرطاً تفاعلياً مع سائر المسائل التي يمكن تلخيصها بأن مهمة التحرر الوطني والاجتماعي لم تُنجز بعد، ولن يُمْكن لأحوالنا في العموم، وفي كل بلد بذاته، أن تستقيم من دون إنجازها.. وفلسطين (وإسرائيل تلك) جزء منها. واضح وبسيط، أليس كذلك؟

(*) في 23 نيسان/ابريل هذا العام، فالتاريخ يتغيّر حسب التقويم العبري.

نهلة الشهال

السفير العربي

7807 من الأطفال الموريتانيين اللاجئين في مالي سيحصلون على الجنسية المالية. ويعيش في مالي حاليا قرابة 13000 موريتاني، سبب وجودهم هناك هو التهجير العرقي الذي حدث في بلدهم بين عامي 1989 و1990

ملف

العدالة الاجتماعية والانتفاضات العربية

تستند سلسلة المقالات هذه إلى بحث تَشارَك في تأليفه كلٌّ من أماني الجمل من جامعة برنستون ومايكل روبنز من «الباروميتر العربيّ». وقد أصدر البحث «برنامجُ العدالة الاجتماعيّة وسياسات التنميّة» في معهد عصام فارس للسياسات العامّة والشؤون الدوليّة في الجامعة الأميركيّة ببيروت، بالتعاون مع مركز ممدوحة س. بوبست للسلام والعدالة في جامعة برنستون، وذلك بتمويل من مؤسسة إلمِر وممدوحة بوبست في نيويورك. وينشره «السفير العربي» على حلقات بالاتفاق مع منتجيه.

نظرة عامة

تَعني العدالة الاجتماعية ف ي جوهرها خلق مجتمع عادل أو متساوٍ يكفل معاملة جميع أعضائه بالمثل، ويحترم حقوق الإنسان، ولا يعرفُ تمييزاً على أساس الانتماء إلى جماعة أو غيرها من أشكال الهوية. بعبارة أخرى، تعني العدالة الاجتماعية توفير المساواة، أو الفرص المتساوية على الأقل، لجميع أفراد المجتمع.

كثيراً ما تركّزت احتجاجات «الربيع العربي» على قضايا متعلقة بالعدالة الاجتماعية. وطالب المتظاهرون بحقوقهم الاقتصادية والسياسية والإنسانية، وبأن تحاسب الحكومات أولئك الذين ينتهكون هذه المبادئ. وفي البلدان التي شهدَت تغييراً لقياداتها ــ بما في ذلك مصر وتونس ــ وعدت الحكومات الجديدة بتفعيل سياسات تركّز على العدالة الاجتماعية. أمّا الأنظمة التي نجت من «الربيع العربي» فمررت إصلاحات أو اتخذت إجراءات أخرى بهاجس أن تتدارك، ولو جزئياً، ما في مجتمعاتها من ضروب عدم المساواة الأساسية.

السؤال المطروح هو: هل أدّى «الربيع العربي» إلى خفض عدم المساواة في مختلف أنحاء المنطقة؟ هل يعيش المواطنون في ظل حكومات جديدة أكثر إرضاءً من تلك الأنظمة التي عاشوا في ظلها أمداً طويلًا؟ مثل هذه الأسئلة أساسية لتحسين نوعية الحكم في أنحاء المنطقة، فضلًا عن إمداد صنّاع السياسة بالأدوات اللازمة للدفع في مسار من الإصلاح المتواصل الذي يلبي احتياجات المواطنين العاديين.

توفّر نتائج المسوح التي أجراها «الباروميتر العربي» على عيّنات على المستوى الوطني فرصةً للتبصّر في هذه الأسئلة. فقد أجرى، على ثلاث دورات، ما يقرب من 35.000 مقابلة في 14 بلداً. كانت الدورة الأولى في 2006–2007 لقياس المواقف قبل فترة لا بأس بها من انطلاق تلك الأحداث، عندما كان مواطنو معظم البلدان يواصلون سنوات طويلة من العيش في ظلّ حكم سلطوي. وبدأت الموجة الثانية في أواخر عام 2010 واستمرت خلال عام 2011، ما يعني أنها امتدت في أثناء أحداث الربيع العربي. أمّا الموجة الثالثة والأخيرة فبدأت في أواخر عام 2012 وتواصلت حتى أوائل عام 2014، ما يوفّر تبصّراً في القناعات والمواقف بعد تلك الوقائع الجسام.

تشير النتائج، بوجه عام، إلى أنَّ البلدان العربية لم تحقق في قضايا العدالة الاجتماعية سوى تقدم محدود في عدد من المناطق، وإلى أنَّ الشوط الذي يتعيّن قطعه لا يزال طويلًا. فما يجنيه معظم المواطنين من دخل لا يكفي لتلبية احتياجاتهم، ولا تزال المخاوف الاقتصادية تلقي بظلّها على القضايا السياسية والاجتماعية في أنحاء المنطقة. وتبقى معدلات البطالة مرتفعة، خصوصاً بين الشباب، ما يخلق لدى كثير منهم الرغبة في الهجرة.

وعلى الرغم من المطالبة بوضع حدٍّ للفساد، ترى الغالبية العظمى من المواطنين في أنحاء المنطقة أنَّ الفساد لا يزال مستوطناً. كما يعتقد معظمهم أنَّ الواسطة ـ أو استخدام الروابط العائلية أو القرابية – لا تزال لها الأهمية نفسها التي للمؤهلات في الحصول على العمل الحكومي، هذا إن لم تكن تفوقها مرتبةً. غير أنَّ المواطنين في تونس واليمن ـ وهما بلَدان ترك فيهما الربيع العربي أشدّ الأثر ـ باتوا يعتقدون أنَّ الواسطة صارت أقل أهمية مما كانت عليه قبل هذه الحوادث. ويبدو أنَّ الحكومات الجديدة بدأت تعالج مشكلة الفساد، وإن تكن لا تزال بعيدة عن حلها.

كانت لدى معظم الجماهير العربية، في لحظة «الربيع العربي»، قناعةٌ بأنَّ المسؤولين الحكوميين لا يهتمون لاحتياجاتهم ولا يأخذون آرائهم على محمل الجدّ. لكن حوالي نصف هؤلاء أو أكثر كانوا يعتقدون أنَّ بمقدورهم أن يؤثّروا في السياسات الحكومية. وإذا كان من المرجح أن يرى المواطنون المصريون والتوانسة واليمنيون ـ البلدان الثلاثة التي أسقط الربيع العربي زعماءها ـ أنَّ بمقدورهم التأثير في حكوماتهم في 2011، فإنَّ كثيراً من مواطني البلدان الأخرى يرون أيضاً أنَّ لديهم مثل هذه القدرة، ربما لاعتقادهم أنه من الممكن التأثير في السياسة بوسائل غير رسمية مثل الاحتجاجات والتظاهرات.

بيد أنَّ قلّةً من المواطنين العرب هم الذين يقيّمون حكوماتهم أو حال الديموقراطية وحقوق الإنسان فيها على نحو إيجابي. وفي معظم البلدان، انخفض تقييم الحكومات منذ «الربيع العربي»، وهذا ما يصحّ في مصر خصوصاً، حيث انخفض الدعم 38 نقطة في الفترة من حزيران/يونيو 2011 إلى أيار/مايو 2013. غير أنّه لم يكن ثمة تغيير يُذكر في تقييم الديموقراطية وحقوق الإنسان بمرور الوقت، ما يشير إلى أنَّ عدم الرضى عن النظام يرتبط بقضايا أخرى مثل الفشل في تحسين الجوانب الاقتصادية أو في معالجة الفساد على نحو جدّي.

في ضوء هذه النتائج، ثمة حاجة ماسة للإصلاح في جميع أنحاء المنطقة. معظم الجماهير العربية ترى التدخل الدولي عائقاً أمام الإصلاح. وهذا الإدراك يتزايد بشدّة، ربما بسبب الدور المتزايد الذي قام به فاعلون إقليميون مثل قطر وتركيا والمملكة العربية السعودية بعد «الربيع العربي». وعلاوة على هذا، فإنَّ نسباً أعلى من مواطني معظم البلدان العربية ترى أن الصراع العربي الإسرائيلي يشكّل عائقاً أمام الإصلاح قياساً بما كان عليه الحال في السنوات الماضية، ما يؤكد على ضرورة إيجاد حل ذي مغزى لهذه المسألة.

خلود سباعي ـ سوريا

خلفية

وضعت تظاهرات «الربيع العربي» قضايا العدالة الاجتماعية في الصدارة. وكان من أبرز هتافات ميدان التحرير في القاهرة ذاك الذي يقول: «عيش، حرية، كرامة إنسانية». كما سُمعت هتافات مماثلة إنما بصيغ أخرى في عواصم المنطقة ومدنها. وبدلًا من الدعوة إلى نظام سياسي معين أو إلى مجموعة من الإصلاحات، فإنَّ أولئك الذين نزلوا إلى الشوارع راحوا يطالبون بالعدالة الاجتماعية في أوسع معانيها: العدالة الاقتصادية، والعدالة السياسية، وحقوق الإنسان الأساسية للجميع.

قبل «الربيع العربي»، كانت الغالبية العظمى من البلدان العربية تعاني حكماً سلطوياً مديداً ومتواصلًا. ومع أنّ سنوات ما بعد الاستقلال صاحبتها فترات من النموّ الاقتصادي الكبير، بات الركود الاقتصادي في ثمانينيات القرن العشرين هو المعيار المعتاد. وفي أواخر تلك الثمانينيات، تبنّى كثير من هذه البلدان على مضض بعض «الإصلاحات الاقتصادية». وسمح بشيء من الانفتاح السياسي المحدود. غير أنَّ هذه الفترة من اللبرلة فشلت ولم تُفضِ إلى تغيير يُذكر. أدّى ذلك «الإصلاح» إلى نشوء رأسمالية المحاسيب حيث يسيطر النظام على معظم المصالح الاقتصادية. وفي بعض الحالات مثل مصر، امتلكت النخبة العسكرية قطاعات واسعة من الاقتصاد، في حين شهدت حالات أخرى مثل تونس تحكّم الحاكم وعائلته بحصة هائلة من النشاط الاقتصادي. وباتت السلطة الاقتصادية متركزة، في كلتا الحالتين، في أيدي النخبة أو المرتبطين بها، ما أدّى إلى سوء متزايد في أوضاع الجماهير الاقتصادية. وتزامن هذا التدهور في النتائج الاقتصادية مع وفود عدد هائل من الشباب إلى سوق العمل، حيث قدّر البنك الدولي في عام 2004 أنَّ المنطقة بحاجة إلى خلق 100 مليون فرصة عمل جديدة خلال 15 عاماً لمواكبة الطلب على العمل فحسب.

وعلى المنوال نفسه، كانت النتائج السياسية محدودة. وسرعان ما عُكسَت تلك التجارب المقتضبة التي شهدت انتخابات حرة ونزيهة في الأردن والجزائر في 1989 و1991. وكذا كان حال الانفتاح المماثل في مصر بعد أكثر من عقد من الزمن. ومنذ ذلك الحين لم يُعْطَ المواطنون حقّ أن يكون لهم رأي مباشر لا يعوقه شيء، أو لا يمرّ بالمؤسسات السياسية القائمة على الأقل، في الكيفية التي يُحكَمون بها. وكان لهذا العجز عن إحداث أي تغيير ذي مغزى أن يساهم في تعميق الإحباط الذي يلفّ أرجاء المنطقة.

أبعد من المشاغل الاقتصادية والسياسية، لم تكن الأنظمة لتُبدي أقلّ احترام لكرامة الإنسان. وأبقت الأنظمة في مصر وسوريا وبلدان أخرى على قوانين الطوارئ التي تحدّ من الحريات الأساسية وتوفّر للنظام حصانةً في معاقبته كلّ خروج عليه. لكن سلطة الدولة مضت أبعد بكثير من اضطهاد أولئك الذين يقفون ضدها. ولم يُرِد محمد البوعزيزي – البائع المتجوّل الذي أطلق احتجاجه التظاهرات التي أدت في النهاية إلى سقوط النظام التونسي – سوى الحق في تحصيل عيشه. غير أن ذلك أزعج السلطات المحلية التي صادرت بضاعته مطيحةً حتى بإمكانية تحصيل العيش هذا. وباختصار، فإنَّ الأنظمة وأجهزة القمع المرتبطة بها جرّدت مواطنيها حتى من أبسط ضروب الكرامة الإنسانية.

مثّلت أحداث «الربيع العربي» منعطفاً حاسماً في العلاقة بين المجتمع والدولة. أخرجت الاحتجاجات إلى الشوارع المواطنين من جميع الخلفيات السياسية ـ صغاراً وكباراً، رجالًا ونساءً، متعلمين وأميين، متدينين وعلمانيين ـ ليعبّروا عن إحباطاتهم حيال هذه الأنظمة السياسية. وقد أوضحوا بجلاء أنه لم يعد بوسع الأنظمة الاعتماد على مزيج القوة والعقود الاجتماعية القديمة في حفاظها على الاستقرار.

فترة الثمانينيات من اللبرلة فشلت ولم تُفضِ إلى تغيير يُذكر، إذ أدّى «الإصلاح» إلى نشوء رأسمالية المحاسيب حيث يسيطر النظام على معظم المصالح الاقتصادية.

تأثّرت أنظمة المنطقة كلّها ذلك التأثّر العميق. سقطت رؤوس الأنظمة في تونس ومصر واليمن، وكذلك في ليبيا، بعد تدخل أجنبي واسع. لكن الأنظمة في أنحاء المنطقة ردت بطرائق مختلفة ومتنوعة. وعلى سبيل المثال، ما إن اندلعت الاحتجاجات حتى سارعت المملكة العربية السعودية إلى زيادة الإنفاق الاجتماعي بشكل كبير، بل وقطعت عهداً غامضاً بإجراء انتخابات. وفي الجزائر، زادت الحكومة الإنفاق الاجتماعي ومررت إصلاحات واسعة النطاق في القوانين الخاصّة بالمجتمع المدني والحريات الأساسية.

مع استمرار «الربيع العربي»، اكتسحت تغييرات هائلة أرجاء المنطقة. وأخلى الاستقرار المديد مكانه لفوضى متنامية في بعض البلدان، على الأخص في سوريا وليبيا، ولكن إلى حد كبير أيضاً في تونس ومصر. وفازت الأحزاب الإسلامية في انتخابات حرة ونزيهة في مصر وتونس، ما سمح لها بالوصول إلى السلطة. وكان لهذه التغييرات وسواها أن تبدّل المشهد السياسي في أنحاء المنطقة.

لا مجال، بالطبع، للمغالاة في أهمية هذه التغيرات. غير أنّه في خضم الحديث عن الحرب الباردة العربية، وتجدُّد موازين القوى في المنطقة وتغيُّرها، وتنامي قوة القوى الإسلامية، وبداية «شتاء عربي»، يبقى عدد من الأسئلة التي تمسّ جوهر «الربيع العربي» من دون إجابة. وأهم هذه الأسئلة: هل تحسّنَت نوعية الحكم في أرجاء المنطقة؟ هل أجرت الأنظمة ـ الجديدة منها كما القديمة ـ أيّ تحسينات ملموسة في القضايا المتعلقة بالعدالة الاجتماعية؟ هل أدّى الاقتتال السياسي أو إعادة التوازن الإستراتيجي من طرف الأنظمة إلى استمرار الوضع الذي كان قائماً؟ تسعى هذه الورقة الى تناول هذه الأسئلة باستخدام البيانات التي وفّرها «البارومتر العربي».

وجهان لعملة واحدة: بطريرك ديني وآخر «تقدمي»

تختزل الرواية التاريخية التي اختيرت لنا، مكانة المرأة السياسية في إطارين لا تخرج منهما، إلا بعد تنقيب دقيق في الموروث الشعبي المحكي والآخر المكتوب الذي تمكن من النجاة من أقبية القوالب التي ترسخت في الذاكرة الجمعية لقرون. فالمرأة في هذه القوالب هي إما والدة البطل أو الماكرة المخادعة التي اغوت البطل.

جاء تفسير واستثمار الرواية الدينية اللذين احتكرتهما عقلية البطريرك، ليرسخا دونية المرأة بتوظيف قصة حواء وزوجة وبنات لوط وتامار إلى نص نقصان العقل والدين، لتدعيم الرواية السياسية التي تسقط المرأة عنها سهواً عند كل منعطف طريق ساهمت في تعبيده، إن لم تعبده هي كلياً قبل أن يجلس البطريرك مجدداً على عرشه.

ومن هنا لا يُخفى أو يُستغرب من أتباع التيارات الدينية المحافظة ازدراؤهم للنساء، نظراً لامتداد تاريخي متجذر في ذاكرة الشعوب. وفي أفضل تجليات اللبرلة الدينية المعاصرة، تؤسس هذه التيارات الدينية لهيئات نسائية تبشيرية جل همها تحجيم دور النساء السياسي، وكبح أي توجه تحرري يؤسس لمواطنة غير منقوصة في السياسة يمثل تشكله تهديداً لمواطَنتهن المنقوصة في الحياة الاجتماعية والخاصة، التي لو تخلت عن هذا النقصان ستزيح البطريرك من مكانه بشكل عميق وجذري.

إنما ما يدعو للاستغراب والمقت، هو الخط الذي يسلكه «التقدمي» داعي التحرر، الذي يتمكن بسلاسة في غمار معاركه الفكرية الميتافيزيقية والفلسفية من تكييل التهم وتوجيه النقد صوب زميله المثقف في إطار سياسي خالص، في حال كان الند رجلًا.

أما في حال التناقض والجدال مع النساء، فتتجلى عقدة القضيب، وينتج عنها نظرة جنسانية خالصة تجرد المرأة من أي ندية تجعلها ترتقي للخلاف والاختلاف السياسي. يحال أي نقاش مع الآخر المختلف في حال كان امرأة إلى نقاش قائم على الخوض في تفاصيل حياتها الشخصية بشكل عام والجنسية بشكل خاص، وما يتبع ذلك من أسلحة تئد أي جدل سياسي متكافئ في المهد، وتحول ساحة الاختلاف إلى مباراة تبدأ بذم جسد المرأة وتنتهي بالتعيير بالعهر الذي بات صيغة متعارف عليها تستدعي كل العصبويات الذكورية لتنهش المرأة المختلف معها في كل شيء إلا أفكارها التي كان يُفترض أن تكون محل نقاش.

وشهدت مؤخراً كلٌّ من ساحات الإعلامين التقليدي والحديث اقتحام تنظيم الدولة الإسلامية للمناطق الأيزيدية في العراق. هول هذا المشهد يعيدنا إلى الكثير مما تضمنه تاريخنا من تهجير وقتل وسبي، سواء من إبادة الأرمن، والنكبة الفلسطينية، إلى مجازر الأنفال والدجيل إبان حكم البعث العراقي، وحرب رواندا الأهلية، وحالات الاغتصاب الجماعي حديثاً في مصر وليبيا وجنوب السودان. جاء رد مدعي التقدمية الذي اكتسب صفته من افتراض معاداته للرجعية، بدعوة الرفاق والرفقة والإخوة إلى اغتصاب وقتل كل «داعشي»، «متحفزاً لسبي مجاهدات داعش» ممن وصفهن بالمتهافتات لجهاد النكاح، تماماً كما يعيّر نظيره الفريق الآخر بزواج المتعة.

كتبتْ يوماً إحدى الصحافيات ساخرة بكل عنجهية وبرودة قلب من مجزرة دوما، فكان رد بعض من يدّعون الحرية كيل الشتائم المقيتة التي لم تناقش او تدين التعليق بما يتضمنه من غل وحقد، إنما تتبعت أثر الكاتبة وتهافتت التهديدات بالاغتصاب والسبي والتوصيفات الذكورية التي تشرّح أعضاء الجسد، وتنطلق من خلفية أن المرأة «عورة»، وان كل ما يتصل بالأنثى أو يمثلها هو شتيمة بحد ذاته. وهو مشهد تكرر مع إحدى الفنانات التي عارضت النظام السوري، فتساوى الطرفان بمنهجية وذكورية النقد رغم اختلافهما السياسي.

وللأمانة، لا يختلف الغرب في ذكوريته عن شرقنا. يعمد أنصار الجمهوريين في حربهم الإعلامية ضد مرشحة الديموقراطيين لرئاسة الولايات المتحدة هيلاري كلينتون، إلى التذكير بفضيحة زوجها بيل كلينتون للتهكم بمنطق القول: «لو كان يرجى منك خيراً لما خانك زوجك».

هو البطريرك المتدثر في خطابنا، سواء بقناع ديني أم مدعي التقدمية، رجلًا كان أم إمرأة. هو امتداد للعنف المركب الذي قامت عليه مجتمعاتنا الإنسانية. ومن لا يعول عليه بالفضاء الخاص لا يعوّل عليه بالفضاء العام والعكس صحيح. وهذا العنف السياسي الإقصائي الموجه يوضح معالم القمع المنهج لشريحة اجتماعية أساسية.

يبدأ التحرر من الأفراد على اختلاف تصنيفهم الجنسي والعرقي والديني والطبقي لتتلقفه الجماعات وتؤسس لنموذج الدولة المرجوة والفضاء السياسي والفكري الصحي والسليم وصولًا إلى المواطَنة المتساوية والندية.

عاصم ترحيني
كاتب من لبنان

العربي السفير

قضية

197 مليون دولار أقرّ صندوق النقد الدولي تسليمها للأردن في إطار خطة إقراض بدأت عام 2012. وبهذا يكون الأردن قد تسلم 1.5 مليار دولار من أصل 1.89 مليار متفق عليها، وتعهد الصندوق بتسليم باقي الأموال دفعة واحدة هذا العام.

مدننا المريضة وأنثروبولوجيا الفضاءات

لا يكاد يختلف اثنان في أن مدننا العربية مريضة، وأن الآفات من كل نوع تنخر جسمها المترهل، وأنها أصبحت بؤرا للفساد ومرتعا للنفايات، ينتشر فيها الإجرام وينعدم فيها الأمن، وتغطيها الأوساخ والأتربة وتكثر فيها المجاري والحفر حتى تكاد تنعدم في أجزاء كبيرة منها شروط الحياة الكريمة. لكن الجميع يختلف في تشخيص هذه الأمراض وتحديد الأسباب ووصف العلاج.

الحدود في ملء الفضاء

في كتابه «الآخر والآخرون في القرآن»، (الصادر عن دار التنوير والفائز بجائزة معرض تونس الدولي للكتاب 2015)، يطرح الفيلسوف التونسي يوسف الصدِّيق مجموعة من الأفكار التي قد تساعدنا في مقاربة أمراض مدننا بشكل جديد وفهمها بطريقة أفضل من خلال قضية الفضاءات العامة وعلاقتها بقبول الآخر، وفكرة التعايش وعلاقتها بالمجال المكاني. حاول الكاتب الإجابة على السؤال الدائم: لماذا ذم القرآن الأعَراب وسكان القرى ووصفهم بأنهم أهل كفر ونفاق ووعدهم بالثبور وعظائم الأمور؟ ولماذا أثنى على أهل المدن ودعا للانتقال إليها؟ وهل لهذا الأمر علاقة بالآخر وقبوله في هذه الفضاءات؟ لا يمكن الحديث عن الآخر في القرآن من دون الحديث عن الفضاءات لأنها المجال الذي يحتوي الأنا والآخر في حيز واحد، ومن هنا كان الفضاء نقطة أساسية في الرسالة الإسلامية لأن الخطاب القرآني قام بتفجير الفضاء الاجتماعي المكي، من أجل خلق فضاء جديد كانت المدينة مكانا له ومسرحا لظهوره. يرى الصدِّيق أن الحكم على الفضاء (بادية، قرية، مدينة) ليس اعتباطيا ولا لطبيعة ثابتة فيه، بل هو مرهون بطريقة ملئه ــ أي الفضاء ــ من طرف أفراده. وهذا الملء مرتبط بحدود الله، وعلى الإنسان في ملئه للفضاء الذي يحيا فيه ألا يتعدى حدوده الانسانية التي وضعها الله له كإنسان والتي تسميها الشريعة «الحلال»، إلى حدود الله المعروفة بـ «الحرام». ومن هذا المنطلق نفهم «الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (التوبة: 97) ، لأن ذم القرآن للأعرابَ (البدو) ليس كرهًا للفرد البدوي كشخص بل هو ذم لطريقته في ملء الفضاء، حيث لا يعرف الحدود ويتعدى حدوده الإنسانية إلى الحدود الإلهية، وبالتالي يحول الفضاء الذي يتحرك فيه إلى فضاء سلبي. فطريقته قائمة على إهمال الفضاء ونسيانه. البدوي لا يبني بئرا في المكان الذي يستوطنه ولا يزرع زرعا بل يترك قطعانه تأتي على الأخضر واليابس وينتظر أن يجف نبع الماء ويصفّرّ العشب لينتقل إلى مكان آخر يكرر فيه العملية نفسها ناسيا المكان الذي قبله. ومن هنا فإن ذم الأعَراب في القرآن هو دعوة للتخلي عن طريقتهم في ملء الفضاء.

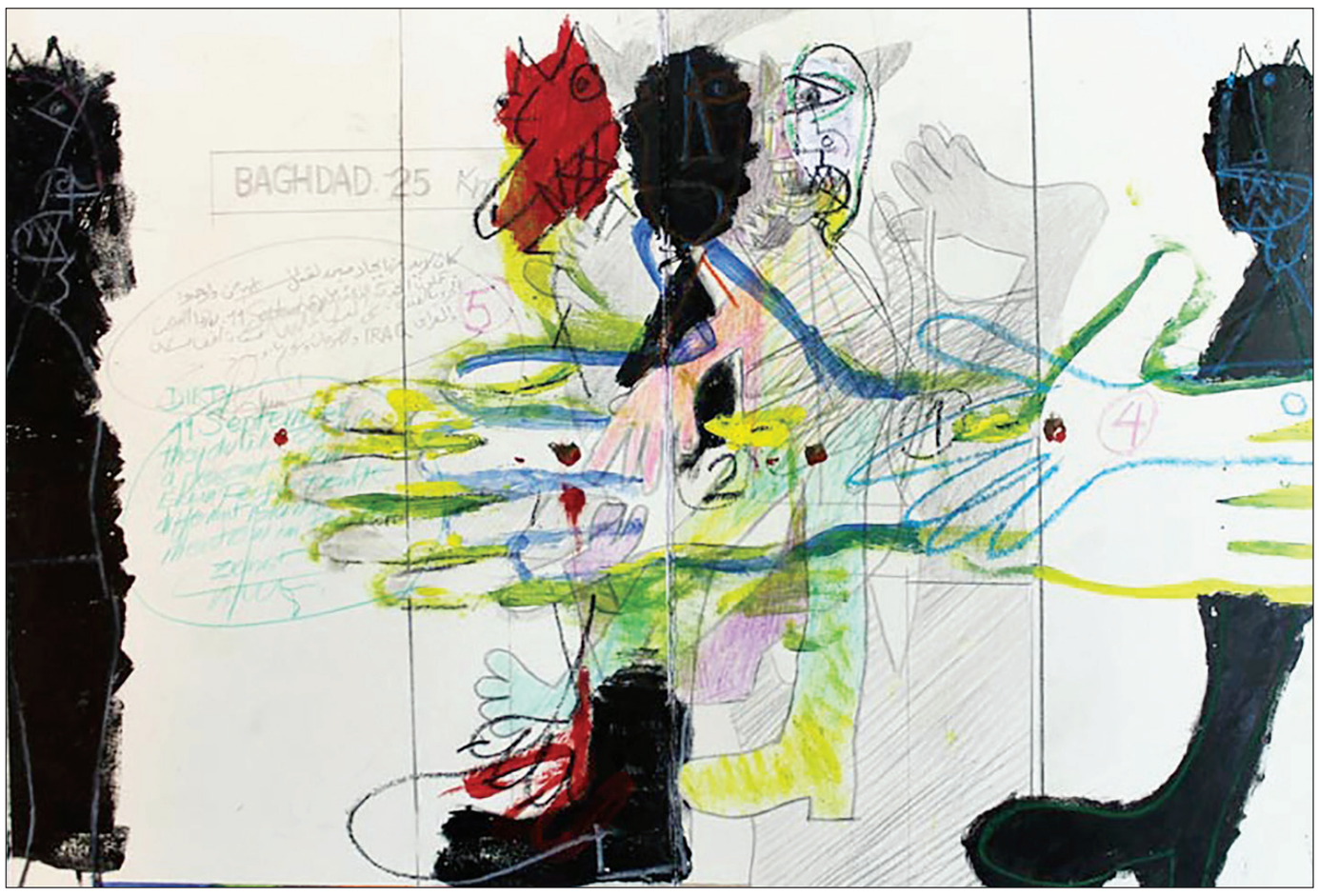

اللوحة للفنان العراقي المتميّز والفريد محمد مهرالدين، الذي رحل الأسبوع الماضي

البادية

وقد تفطن ابن خلدون لهذا الأمر فخصص له الفصل السادس والعشرين من مقدمته الشهيرة وعنوانه «في أن الأعَراب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب». ويُرجع ابن خلدون السبب في ذلك إلى «إنهم أمة وحشية باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم، فصار لهم خلقاً وجبلةً، وكان عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له». تتميز الصحراء (باعتبارها فضاء البدوي) بكونها فضاء مفتوحا يمكن ولوجه من كل الجهات، والسير فيه على غير هدى، لا تحكمه قوانين ولا تسيطر عليه سلطة، ولا يبني حضارة ولا يشيد مدنية، ولا وجود فيه للآخر. البدوي يغير على جاره فيقتله ويستولي على نسائه وقطعانه لأنه يرى نفسه أحق منه في المرعى والماء. وهكذا تستمر الحياة هناك على منوال الغارات والغارات المضادة. لذا فالبادية «فضاء للتشظي» والانقسام.

وينطبق الأمر نفسه على فضاء القرية باعتباره فضاء سلبيا وناقصا ومحتقَرا، إذ عادة ما يرتبط ذكرها في القرآن بالعذاب والخراب والدمار «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا» (الكهف:59). تلك القرى التي أصبحتَ مرتَعًا للكفر والظلم والضلال، فضاء مغلق تعيش فيه المجموعة نفسها من الناس مع بعضهم البعض، وبالتالي فهي فضاء مشجّع للتعفن وسيطرة القلة المسرفة وانغماسها في الفساد ورفضها للآخر حتى يحق عليها العقاب. الفضاء مغلق على الذوات التي فيها ولا مكان للآخر الغريب، بل حتى للقريب المخالف، لذا تراهم يخرجونه من فضائهم «وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ» (الكهف:59).

المدينة

على عكس الفضائين السلبيين السابقين، يقترن فضاء المدينة في القرآن بالإيجابية باعتباره «فضاء تعايش» يتجاوز الفضاءات سالفة الذكر. لذا كان أول ما فعله الرسول حين هاجر إلى «يثرب» التي كان يقطنها مجموعات بشرية مختلفة (أوس، خزرج، يهود)، هو تغيير اسمها إلى «المدينة»، رغم أننا لا نعثر على كلمة «المدينة» مفردة في الشعر الجاهلي ولا في أدبيات ما قبل الإسلام. كما أنه أمرٌ لم يقم في أي مواضع أخرى انتقل إليها المسلمون من بعد، غزوا وفتحا مثل ثمود وتبوك وسوسة واشبيليا، وهو ما يؤكد أن لهذا الفعل دلالته الواضحة: نحن أمام «مشروع». ويتميز فضاء المدينة بأنه فضاء وسط، فلا هو مفتوح تماما ولا مغلق تماما، وهو يسمح للأفراد بالتنقل منه وإليه. في المدينة أبواب وطرقات، وفي ضواحيها مزارع ومراع يسهل الذهاب إليها والرجوع منها، فهي مكان للعيش المشترك والتنوع، تحكمه مجموعة من القوانين التي تؤمن عيش الفرد مع الآخرين والاستقرار ضمن مجموعة واعدة لكنها متنوعة. لذا يمكن اعتبار العقل الجماعي نتاج تفرضه المدينة.

ربما يصلح هذا الطرح لمقاربة حالة ما يسمى «مدنا» اليوم في عالمنا العربي، والحالة المزرية التي تعيشها من ظهور البناءات الفوضوية والأحياء العشوائية، وكثرة الباعة غير الشرعيين، واحتلال الأرصفة، وانتشار القمامة والروائح الكريهة في كل مكان، ومظاهر الإهمال، والكتابة والرسوم الخادشة للحياء على الجدران، وكثرة أشغال الحفر والمجاري، وانعدام المساحات الخضراء وفضاءات اللعب والاستراحات، وتحول المجال العام إلى مكان للنزاعات والصراعات.. وغيرها من المظاهر السلبية التي هي نتيجة طبيعية لعملية الترييف التي طالت المدن ــ نتيجة النزوح الريفي والهجرات الداخلية بحثا عن فرص حياة أفضل ــ فحولتها إلى بادية جماعية يتم فيها ملء الفضاء بطريقة قائمة على الإهمال والنسيان.. فتجد الساكن في العمارة يرمي الأوساخ من عل، وينشر الغسيل على النوافذ والشرفات، ويضع الزبالةَ في غير أماكنها أو أوقاتها، ولا ينظف أمام بيته ولا عمارته، بل لا يهتم بمسكنه الخاص، وأحيانا يصل به الأمر إلى تربية بعض الحيوانات فيه، وهو أمر مشاهد وملاحظ. ولا حل لهذه المشاكل إلا بالثقافة: تغيير طريقة الساكنين في ملء الفضاء الذي يعيشون فيه، لتقوم على قبول الآخر والتعايش معه ومع الوسط، وملئه بمنطق الاهتمام والاحترام وعدم تجاوز الحدود الإنسانية.

مبروك بو طقطوقة
باحث أنثروبولوجي ـ الجزائر
رئيس تحرير المجلة العربية للدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة

معلّم جغرافيا في «عين العرب»

لم أتوقّع، عندما تقدّمت لمسابقة تعيين معلمي جغرافيا قبل الأزمة السورية بعدّة سنوات، سوى أن يكون عملي في إحدى مدارس مدينتي حلب أو في قرية قريبة، أسوة بالمعلمين المدعومين باستثناء من مسؤول.

اعتمدتُ على جهود أبي ونفوذه وتوقعت أن يساعدني عندما صدر قرار تعييني في عين العرب، لكنه لم يحرك ساكنا، ليس لأنه يرفض مبدأ الوساطات، فأبي لم يكن قدّيسا، كما أنّ معارفه كثر في مديرية التربية بحلب، ولكن كما فهمت، أراد أن يعاقب الابن الضال الذي خرج عن تقاليد الأسرة التي تمتهن التجارة أبّا عن جد، ودرس الجغرافيا (أي تعليم وخرائط، وأي جبال وأودية.. هذا كله لا يطعم خبزا ولا فجلا). ومع ذلك راق لي أن أتمرّد على سلطة أبي وأن أُسافر إلى عين العرب وألتحق بوظيفتي. ولن أنسى فرحتي بأول راتب قبضته، في أيام عزّ الليرة السورية.

مع بداية العام الدراسي 2006، حملت حقيبتي الصغيرة مع بضعة كيلوات من صابون الغار والزعتر الحلبي، واتجهت إلى كراج هنانو، الشريان الأساسي في قلب المدينة، والذي كان يعج يوميا بمئات الباصات وآلاف المسافرين إلى كل أرجاء سوريا، وأمسى حاليا خط تماس، مسكونا بالقناصين وبرائحة الموت. وفي العام الدراسي 2008، سوف تضطرني ظروف عملي للتعرّف على الكراج الجديد جنوب المدينة في منطقة الراموسة، والـذي أمسى اليوم، هو الآخـر، مهجورا من ضجيج السائقين والمسافرين، ومسكونا أيضا برائحة الموت.

لم أكن أعرف شيئا عن عين العرب، مع أنني حفظت كالببغاء في منهاج البكالوريا تاريخ بلدي وجغرافيته عن ظهر قلب، ودخلت الامتحان ونلت أعلى الدرجات، وإن كان أنهم لم يسألوني عنها، ولا عن مئات القرى المحيطة بها. سألوني عن موريتانيا وجزر القمر، كما سألوني عن زراعة الأرز في الصين والأفوكادو في أمريكا.

كان الباص، على طول مسافة المئة والخمسين كيلومترا، يتمايل طربا على غناء باقي خضر ومحمد دومان. لأول مرة أسمع أغنيات من التراث الشعبي الكردي وأنسى صباح فخري وأغنيته المفضلة عندي «يا مسعدك صبحيّة»، وإن كنت اليوم أضحك على خيبتي، فأي سعد وأي صبح؟

توجهت فور وصولي إلى المجمّع التربوي. هنا لصابون الغار والزعتر دورهما الفعّال ومفعولهما السحري في تجاوز الروتين واستكمال المعاملات المعقدة لمباشرة العمل، وهنا أيضا يجب الاعتراف أنّ أحد أصدقائي من حيّ الشيخ مقصود بحلب زودني برقم هاتف ابن أخته جوان لمساعدتي في تأمين غرفة للإيجار، فاتصلت به. حضر جوان، وهو شاب في العشرين، مصطحبا معه أخته الصغيرة نيروز ذات الجدائل السمراء: «أستاذنا، نَوّرت كوباني، أنت في ضيافتنا، وأهلا بالمعلم وبالجغرافيا السورية كلها».

منذ اليوم الأول، اكتشفت عالما آخر من «الفسيفساء السوري»، العبارة السورية المشهورة التي يحلو لنا أن نستخدمها كدليل على تنوعنا. وطوال فترة إقامتي التي استمرت إلى منتصف شهر نيسان 2011، اكتشفت أيضا أنّ هناك مدينة صغيرة تنبض بالحياة: بيوت بسيطة وحوانيت صغيرة تعجّ بالبضائع المحلية، ومدارس للتعليم الأساسي، وثانويات بمختلف فروعها، ومعامل تُصنّع الحصّادات والحفّارات، وأراض زراعية واسعة تزرع القمح والقطن وغيرهما من المزروعات المشهورة في سوريا. أناس محبون ومخلصون، كابدوا هواجس أحلامهم وأسئلتهم المشروعة حول تلك الجذور والهويات المنسية.

كانت أيامي في عين العرب مليئة بالعمل. فعلى سبّورة الصف أكتب الدروس التي أقوم بتحضيرها كل ليلة. أحببت الأولاد وأحببت ضجيجهم الموسيقي في كل حيويتهم وفي كل حماستهم في التعلّم وتحضير لوحات الحائط، على الرغم من أنّ التسرّب من مدرستي والمدارس الأخرى كان يزداد فصلا دراسيا بعد فصل، فأشتاق إليهم وأبدأ رحلة البحث عنهم في ورشة أو في حقل، وأفشل في استرجاعهم.

وانطلاقا نحو غد أفضل، لن أنسى المشهد الصباحي في مطلع كل أسبوع، فمع كلمات خليل مردم بك وألحان الأخوين فليفل، كنا نحيي العلم ونحن ننشد «حُماة الديار عليكم سلام»، لكنني كنت أقرأ امتعاضا في وجوه بعض المعلمين، وفي استراحات الدروس وعلى هيصة الأولاد في الباحة كان هذا الامتعاض يتحوّل إلى أسئلة كثيرة تحاصرني، مع أنني لم أكن وزيرا ولا أشغل منصبا في عضوية مجلس شعب أو في إدارة محلية، كما لا تتوفر عندي أدنى مواصفات أغلب المسؤولين في بلدنا، مثل كرش الوجاهة وصبغة الشعر السوداء الداكنة ومفردات اللغة الخطابية الخشبية.. أنا فقط أستاذ مثلهم، هاجسه التعليم وتأمين قوت شهره. لكنني صرخت بوجههم: للأكراد ممثلوهم المنتخبون في مجلس الشعب، فصرخوا بوجهي: أستاذنا، لماذا لا يحق لنا تعليم اللغة الكردية في كوباني أسوة بتعليم اللغة الأرمنية واللغة السريانية في مدارس طوائفكم بحلب؟ وأيضا، لماذا لا يحق لنا إصدار صحيفة أو افتتاح إذاعة، على الأقل إف إم، وسوف نبث لك قدود صباح فخري وكل موشحاته.. أستاذنا، لماذا لا يحق لنا تأسيس جمعية أو حزب من منطلق التعددية المنشودة مع كل بيان حكومي. كنت أحاول التملّص من كل هذه الأسئلة ببيت شعر أو بقول مأثور. ولكن عندما كانوا يحاصرونني بشدّة أستشهد بقول السيد المسيح «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون»، وسرعان ما يصرخون بوجهي: أي غفران؟ إنهم يعلمون ماذا يفعلون.

يبدو أنه كان عليّ أن أكتشف هذه المدينة الصغيرة التي جئت لأعلّم فيها وأنا لا أعرف شيئا عنها ولاعن تركيبتها الإثنية ولا عن طبيعة تربتها ولا عن سحنات أهلها، مع أنها ضمن محافظة حلب، وكأنّ المسافة بينها وبين حلب تمتد لآلاف الأميال. فاستغربت كيف حصلت على أعلى الدرجات وأنا لا أفقه شيئا عن مدن وطني وقراه. حملت أقلام التلوين مثل تلميذ صغير في الصف السادس لأحاول أن أرسم قدر الإمكان ما أجهله، وصرت ألوّن هذه الحدود الشمالية الشرقية المفتوحة على مصائرنا المجهولة في حلب وفي عين العرب معا. من لعب بخرائطنا الصغيرة؟ لا أعرف، لأنني يبدو لم أدرس الجغرافيا جيدا وأجهل طقوس المدّ والجزر، وتأثيرات البراكين والزلازل.

موسى بيطار
كاتب من سوريا

الزاوية العمياء
كتب نائل
ورسم مخلوف

وزارة الطاقة الإيجابية

أثناء ما كان يتواصل الإرهاب في سيناء وإغلاق محطة مترو السادات في القاهرة، اصطدم القطار بالجدار في محطة العباسية وتوقف عمله لأجل غير مسمى، كما أُلقي 500 طن من الفوسفات في قلب النيل وتسمم العشرات في الشرقية. وهنا قررت الحكومة إنشاء وزارة جديدة اسمها «وزارة الطاقة الإيجابية»، وكان دور موظفي الوزارة هو السير في شوارع المدن الكبرى، وترديد ثلاث جمل «أنا أثق في ذكاء الكبار، أنا عندي أمل، أنا قلبي مليء بالطاقة الإيجابية»، مقابل مرتب خمسمئة جنيه في الشهر.

في البداية كان صوت الموظفين عالياً، يمشون ويزعقون «أنـاااااا عنديييييي أمـل»، ولكن الناس كانوا ينظرون إليهم بلا مبالاة، وبعد قليل بدأت أحبالهم الصوتية تتعب، وأصواتهم تنخفض بالتبعية، مع الحرص على أن تكون جميع المقاطع منطوقة، وإن لم تكن مسموعة، لأن هذا يترتب عليه وصول الخمسمئة جنيه في موعدها آخر الشهر.

الآن خفتت أصواتهم تماماً. أصبحوا يرددون الجمل الثلاث بصوت هامس، يمشون ولا ينظرون أمامهم كأنهم مسرنمون، لدرجة أن أحداً لم يفهم ما يقولونه بالضبط. بل البعض تجرأ عليهم أيضاً. ولكن الطاقة الإيجابية تستطيع دائماً حماية نفسها، فقد تداول المصريون قصة موظف الطاقة الإيجابية الذي سار في الشارع وهو يهمس لنفسه بالجمل الثلاث، وقام أحد الأطفال بالضحك عليه، فما كان من الموظف إلا أن أخرج مسدسه وقتله، وواصل المشي وهو يردد «أنا عندي أمل، أنا قلبي مليء بالطاقة الإيجابية». وفي رسالة تقدير لموظفيها، منحت الوزارة هذا الموظف سبعمئة وخمسين جنيهاً، بفارق مئتين وخمسين عن المرتب الأصلي، لأنه أثبت بالدليل القاطع كيف يمكن أن ينتصر الأمل على الإرهاب في وطننا الحبيب.

نص نائل الطوخي ورسم مخلوف

العربي السفير

متابعات

115 هو عدد الأطفال الذين قتلوا خلال شهر بسبب «عاصفة الحزم»، منذ انطلاقها في 26 آذار/مارس وحتى 26 نيسان/أبريل وذلك وفق يونيسف، منهم 64 قتلوا في غارات جوية، و26 بانفجار ألغام، و19 بالرصاص الحي، و3 بالقصف المدفعي، و3 بوسائل لم تتبينها المنظمة.

العراق.. لا عزاء للصناعات المحلية

وقفت أم عبّاس قدّام الكاميرا وهي تَعتمرُ خوذة عسكريّة، وقالت بتحدٍّ «من منكم يحمل سلاحاً فليوجه إطلاقاته إلى رأسي.. أنا من صنع هذه الخوذة وأُراهن عليها بحياتي»، وتساءلت «لماذا تبقى صَناعاتنا مكدَّسة في المخازن فيما الدّولة تستورد مثيلاتها التي لا ترق إلى جودتها بملايين الدولارات؟».

لا تجد السيّدة التي تعمل في مصنع تابع لوزارة الصّناعة العراقيّة، والتي لم تتسلّم مرتبها منذ أكثرَ من ثلاثة أشهر، إجابة من الحكومة العراقيّة التي أغرقت البلاد بالسلع المستوردة، من دون أي مُراعاة للحفاظ على الصناعات المحليّة وتطويرها. السؤال ذاته يطرحه عمال شركات النسيج الذين يقولون إن الدولة تستورد من الصين وإيران عشرات آلاف «البطانيات» (الأغطية) منخفضة الجودة لتوزيعها على النازحين، في حين أن «مخازن شركاتنا مملؤة بإنتاجنا من البطانيات عالية الجودة»، والأمر ذاته ينسحب على معامل الفوسفات والأدوية والحديد الصُلب.. وغيرها.

لقد أدّى انخفاض أسعار النفط الخام إلى النصف، وارتفاع كُلف الحرب الدائرة بين القوّات الأمنية وتنظيم «داعش»، إلى أن تتخذ حكومة حيدر العبادي خيار التقشّف كأسهل الخيارات للخلاص من الأزمة الماليّة التي تمرّ بها البلاد. وجعل هذا أم عبّاس وزملاءها وزميلاتها أوّل القرابين على مَذبح سوء إدارة الاقتصاد والصناعة العراقيين.

الاجهاز على ما تبقى

بعد إسقاط نظام صدّام حسين في 9 نيسان العام 2003، كان من الصّعب إحصاء حجم الخراب الذي حلَّ بالبنيّة التحتيّة للبلاد. صارت الشركات الصناعية العراقية نهباً للصوص. أُحرق بعضها، وتم بيع مكائن وأجهزة شركات أخرى لبعض دول الجوار بأثمان بخسة. وبدلاً من أن يُعاد إحياء الصناعة العراقيّة، التي تضررت جراء الحصار الاقتصادي القاسي الذي استمر لأكثر من عقد، والاحتلال الذي أقرّ مشروع إعادة إعمار العراق، راح بول بريمر، «الحاكم المدني للعراق»، يشرِّع قراراً يقضي بفرض ضريبة 5 في المئة على السلع الداخلة إلى العراق، وهي قيمة منخفضة أدّت إلى إغراق الأسواق بالسلع الأجنبيّة ومواد البناء من دول الجوار.

جعل ذلك العاملين في تلك الشركات يعانون البطالة المقنَّعة لسنوات. لكنهم وبخبرتهم المتراكمة، تمكنوا من إعادة تأهيل بعض تلك الشركات التي بدأت بالإنتاج الفعلي. فأجهضت الفوضى والفساد الإداري والمالي آمالهم بتسويق منتجاتهم تمهيداً لتطويرها:

– فالفوضى والفساد الإداريين لم يتمكّنا من إيجاد أسواق لتلك المنتجات داخلياً وخارجياً، خاصة مع وجود سلع أجنبيّة لا يمكن للانتاج المحلي، الذي يعاني الويلات، منافستها.

– وإذا ما كان بريمر وضع الـ5 في المئة من أجل تخفيض الضرائب على الشركات المتعاونة مع الإدارة الأميركية في دعم الحرب على العراق، فإن الأحزاب السياسيّة فرضت نحو 15 في المئة كحصص من كلّ عقد تبرمه مع الشركات التي تأتي بالمنتوجات والسلع لحساب الحكومة، لزيادة الأموال في الحسابات الشخصية لأفرادها. وهكذا تعمَّد فرسان الفساد إبقاء تلك المنتجات في المخازن بهدف الاستمرار في استيراد بضائع مشابهة.

وعلى الرغم من تعطّل 1996 مصنعاً تابعاً لأربع وزارات في العراق عن العمل، بسبب تقادم بعضها، وتخلّف بعضها الآخر عن التكنولوجيا الحديثة، وعلى الرغم من أن الصناعة لا تُشارك في الناتج المحلي إلا بنحو 2.4 في المئة، إلا أن توظيف العمّال في هذه المصانع بقي مستمراً، في صفقة الزبائنية السياسية بين الأحزاب وسكّان المحافظات العراقية التي تعاني فقراً مدقعاً، وهو استمرار لمسلسل البطالة المقنعة و/أو «الفضائيين»، الذي أدّى إلى وصول عدد الموظفين في الحكومة إلى نحو 6 ملايين موظّف، لا يعمل أياً منهم سوى 10 دقائق في اليوم الواحد!

تمويل ذاتي

حاولت الحكومات العراقيّة المتعاقبة منذ العام 2003 وحتّى الآن، تحويل شركات القطاع العام إلى التمويل الذاتي، من أجل تخفيف العبء الذي تسبّبه للدولة. إلا أن خطّة التحويل هذه، لم يكن يعقبها أي استراتيجية في تصريف المنتجات، الأمر الذي يجعلها دائماً متخوّفة من أن تكون شركات خاسرة، ويجعل عمّالها لقمة سائغة للجوع، ويجعل مصانعهم أيضاً عرضة لجشع الأحزاب السياسية التي تمتلك شبكة تجّار مستعدين للانقضاض على أي مشروع يدرّ الأرباح، مهما جرَّ خلفه من ويلات على عامّة الشعب.

كلّف نحو 400 ألف موظّف في الشركات العامّة الدولة نحو 10 مليارات دولار كمرتبّات خلال العقد الذي تلا الاحتلال، واقترضت الأموال من المصارف الخاصّة بفوائد تسدّدها وزارة الماليّة العراقيّة. جرى كل ذلك من دون أن يكون لهؤلاء العمّال والعاملات انتاج فعلي يسدّ ما يُنفَق عليهم، بل إن بعض الشركات أُعلنت كمنشآت خاسرة، وليس لديها القدرة على الإنتاج.

حصل ذلك كلّه أيّام الطفرة المالية جراء ارتفاع أسعار النفط إلى أكثر من 100 دولار للبرميل الواحد، الأمر الذي جعل الجميع مطمئناً: يأخذ العمّال مرتبّاتهم كل شهر، وتكدّس الحكومة منتوجاتهم في المخازن لتأكلها الجرذان وتتلفها الأمطار. لم يتوقّع أحداً أن شيئاً جديداً سيحدث، أن النفط لن يظلَّ على حاله، وأن الدولة عليها أن تنوّع مصادرها، وأن تستثمر في مصانعها المعطّلة والمتهالكة.

ما الذي جرى؟

إيغالًا في فشل الإدارة المالية، مع تبخّر الأموال من خزينة الدولة بالتزامن مع انخفاض أسعار النفط واستعار الحرب ضد تنظيم «داعش»، عمدت وزارة المالية إلى قطع مرتبات العمّال لفترات امتدت في بعض الشركات لعشرة أشهر، فيما تتراوح فترات قطع مرتبات منتسبي شركات أخرى بين الستة أشهر والثلاثة أشهر. لم يجد المنتسبون، جرّاء الجوع الذي حلَّ في منازلهم، بدّاً من الاحتجاج للمطالبة بمرتباتهم، وفي ظل غياب النقابات التي تدافع عن حقوقهم على الرغم من الإرث النقابي الكبير في التاريخ العمالي العراقي.. لم يجد هؤلاء سوى المبادرات الفردية التي سرعان ما تحولت إلى تجمّعات واسعة في معظم المحافظات.

كانت البداية من معامل النسيج، حيث اعتصم مئات العمال منتصف أيلول 2011، للمطالبة بمرتباتهم وحماية المنتج الوطني من منافسة البضائع المستوردة من مناشئ لا ترقى إلى مستوى المنتوج المحلي. وبعد دفع مرتبات المنتسبين آنذاك، عادت قضية الشركات إلى الظل، لتنطلق مجدداً بداية العام الجاري. ومع إهمال المطالب من قبل الحكومة، عمد منتسبو الصناعات النسيجية في بابل إلى اقتحام مجلس المحافظة في التاسع من شباط في حركة تصعيدية وجدت صداها مباشرة في بغداد، حيث قطع المئات من منتسبي شركات البطاريات والصناعات الميكانيكية والصناعات الكهربائية الطريق السريع أمام مبنى وزارة المالية مطالبين بصرف مرتباتهم. وأمام هذا التصعيد، أضطرّت الحكومة للانصياع لمطالب المنتسبين وصرف بعض من مرتباتهم ومستحقاتهم لتحل جزءاً من المشكلة وتجعل الجزء الآخر قيد الانتظار.

والحل؟

ليس لدّى الحكومة إجابات على أسئلة 600 ألف موظف موزعين على 79 شركة عن مستقبلهم، لكن ثمّة مشاريع قوانين عدّة تخفف من أعباء الانفاق، وليس من بينها إعادة تشغيل المصانع والاستفادة من منتوجاتها، ومنها خفض سنّ التقاعد ليضاف هؤلاء إلى نحو مليون متقاعد مسجلين في سجّل الحكومة العراقيّة، أو عرض هذه المصانع للبيع أو للاستثمار، تاركين مصائر العمّال للمستثمرين الجدد الذين لن يضبطهم قانون يمنع صرفهم من المصانع.

تظلّ اللجنة المالية في البرلمان تكرر المقترحات، إلا أن رفع الحيف عن المصانع، وتدوير عجلتها، وبيع منتجاتها إلى المؤسسات التي تحتاجها تظلّ خارج المقترحات. هذا القصور من قبل رجال الدولة يرتبط بالتأكيد بنقص خبرتهم في إدارة الملفات المهمة ومنها الملف الصناعي، لكن يضاف الى ذلك شبهات فساد تقف خلف إفشال الصناعات العراقية بسبب الرشا التي يتسلمها المسؤولون من صفقات استيراد المنتجات من الخارج، حيث أن البضائع والصناعات العراقية محددة الأسعار ويتم تسديد أقيامها عبر الحسابات المصرفية من الجهة الشارية الى الجهة البائعة، مما يحرم الفاسدين من حصصهم الكبيرة في صفقات التجهيز.

قد يكون حراك العاملين في شركات وزارة الصناعة ذات التمويل الذاتي المتزامن مع الأزمة التي تعصف بالاقتصاد العراقي، مدخلاً للاهتمام بالصناعات العراقية ما يشكل إضافة نوعية في ملف محاربة الفساد ومورداً مهماً للدخل الوطني. والى أن تتحقق هذه «القد»، تبقى الصناعات العراقية من دون عزاء من الدولة والقائمين عليها.

عمر الجفّال

كاتب صحافي من العراق

حلـــــم..

أمير عمل/ فلسطين

arabi.assafir.com

المزيد على موقع «السفير العربي»
ـ «الحجاب» والشرطُ السوسيولوجيّ ـ حسن نصور
ـ عن مقديشو: وأنا أيضاً غريب في هذه المدينة – محمود عبدي
ـ حلم تأسيس نقابة للصحافيين الإلكترونيين في مصر ـ أحمد عبد العليم
ـ تابعونا على «فايسبوك»: السفير العربي ـ Assafir Arabi
ـ تواصلوا معنا على «تويتر»: @ArabiAssafir

.. بألف كلمة

أمينة العائدة

(تصوير: محمد بدارنة ـ فلسطين)

(تصوير: نادر هواري ـ فلسطين)

«ولا لحظة نسيت قريتي، الحدثة، ترابها وشجرها وعيونها باقية فينا. عندي أحفاد ما بينعدوا عالاصابع، كلهم ربيتهم يتنفسوا هواها».. (أمينة ابو الهيجا، 100 عام، من قرية الحدثة المهجرة ـ فلسطين).
أمينة شاركت في مظاهرة «العودة» بينما تحتفل إسرائيل بـ «استقلالها» الـ 67 (4/23 وفق التقويم العبري)

مدونات

عن أهل العراق

لم يرد ذكره في كتاب الوردي «لمحات من تاريخ العراق الحديث». وهو لا يسرد سفراته وإقامته كسائح أو عابر أو زائر. إنما يُحدّثك كعارف بالمكان وأحواله وأهله. له في كل عهد من العهود التي عاصرها في العراق وحكوماته ذكريات وسرد وتلميحات.. له رؤياه ورؤيته، حسب إقامته وتسهيل سفره من حدود بيته حتى كربلاء، محل إقامته في الذاكرة والأهل والزيارة. يُحدثك عن فيصل الأول والثاني، وعبد الإله، والملك غازي، ويذكر أيضاً الزعيم عبد الكريم بضحكات وحكايات وأزمنة وأشخاص، ويتندر على عبد السلام وأخيه عبد الرحمن، وربما يعيد ذكر الهوسة «صعّد لحم ونزّل فحم»، ويضحك بهوسة نوري السعيد والقندرة، وكيطان صالح جبر. ويصل بسرده إلى مرحلة البكر. ولكن عندما تسأله عن فترة صدام حسين، يخفت حديثه تباعاً، ولا يحب زمن غيابه أيام الحرب الإيرانية. وكما شعّت عائشة البياتي في أشعاره، هو أيضاً زيّنَ ذكرياته بأم عباس، وكأنها سليمة مراد باشا زمانها. في الحرب الأولى، بقي على حياده، ولم تكن ميولاته إيرانية الهوى. ولكن في يوم سقوط بغداد ودخول الأمريكان قال كلمة الخبير والعارف بالمكان العراقي: لا يحكم العراق إلاّ رجل مسبّع ببوله.

* حيي إبراهيم من الأهل، زار العراق بعد الاحتلال لمرة واحدة، ولم يطل الإقامة. ولما سألناه، قال بلهجتنا السنسكريتية: «ما يازت ليي»، أي ما جازت لي.

من صفحة HASAN DABEL على فايسبوك

إيه اللي حصل في سرسو

فلاحين حاربو في اليمن، وفي 1967 الدولة أعطتهم أراضي إصلاح زراعي قعدوا يزرعوا ويقلعوا فيها سنين، لغاية الإقطاع ما رجع وبدأ إعادة الأراضي للإقطاعيين مع قانون الإيجارات الزراعية من سنة 1992

الإقطاعيين الورثة، رجال اعمال تبع الحزب الوطني، وواحد منهم اسمه فريد المصري، حاول يطلع الفلاحين من الأرض بمساعدة الشرطة. الفلاحين راحوا رفعوا قضايا وأثبتوا ملكية الأرض ومعاهم أحكام نهائية. لكن الإقطاع إيده طايلة. وبدعم وحماية من مديرية أمن الدقهلية، نزلت قوة وجرفت زرع الفلاحين وقبضت على مجموعة منهم وحصل تلفيق تهم لهم.

أمس حاول الفلاحون العودة مرة أخرى للأرض التي يملكونها بعقود موثقة وأحكام قضائية، ولكنه أطلقت عليهم مجموعة من البلطجية المأجورين وبحماية الشرطة، واعتقلت عدداً من الفلاحات والفلاحين بينهم أمهات لأطفال رضع.

بعض شباب حزب التحالف الشعبي الاشتراكي نزل يتضامن مع الفلاحين فاتقبض عليهم واتعرضوا كلهم على النيابة اليوم.

21 فلاحة وفلاح و2 من شباب التحالف. النيابة رفضت اطلاع المحامين على المحاضر اللي حررتها الشرطة ورفضت إثبات وجود أطفال رضع في الحجز. وبعض المحامين انسحبوا وتوجهوا لمكتب النائب العام بشكوى. المشكلة لا تخص سرسو فقط ولكنها مكررة في الفيوم والبحيرة وكفر الشيخ والعديد من محافظات مصر.

من صفحة Elhamy Elmerghany على فايسبوك

خضار؟ ممنوع

في الزيارة الأخيرة لعلاء، عرفنا أنه كان في حملة تفتيش على السجون. دخلوا العنبر اللي علاء فيه ونكشوا كل حاجة، وبعدين صادروا غلايات المياه والمراوح! طبعاً دي حاجات داخلة في الأصل بموافقة إدارة السجن.. ضابط علّق على ده بأنهم «فاكرين نفسهم في بورتو». عشان زي مانتوا عارفين، غلاية مياه تعمل بيها كباية شاي ومروحة صغيرة تحاول تواجه بيها الحر اللعين من أهم مميزات بورتو! (...)

من بعد ما السوهاجي مسك منصب مساعد وزير الداخلية لمصلحة السجون، بيحاول يسيب علامته. أول ما مسك اتعمّمت أوامر جديدة على كل السجون بمنع الخضراوات! (...)

فيه تفسيرين متداولين عن سبب القرار العجيب ده:

التفسير الأول: إن السوهاجي شايف إن المساجين مش حاسّين بالسجن كفاية، يعني مش كفاية إنهم بيشوفوا أهاليهم وأحبابهم مرّات محدودة في الشهر على مزاج النيابة والداخلية، ومش كفاية إنهم مقفول عليهم طول اليوم في زنزانة وبيستمحلهم يشوفوا الشمس – لو اتسمحلهم – بمزاج الداخلية، غير طبعا التفتيش في كل لحظة، وغير اللي بيتعرّض منهم لإهانة وتكدير وتعذيب.. ده كله مش «سجن» كفاية. لازم نمنع عنهم الخضار!

التفسير الثاني: عشان يضطروا يشتروا الخضار من كانتين السجن – اللي هو أسعاره أغلى – فالسجن يكسب من وراهم فلوس زيادة. طبعا في تفسير ثالث وأبسط لكل حاجة بيعملوها: مافيش منطق.. هم بس ولاد ستين كلب!

من صفحة Mona Seif على فايسبوك